قضية اللفظ والمعنى في المصطلح البلاغي القديم

مشكلات في المفاهيم وإشكالات التصور

د: سعاد شابي

جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر

الملخص:

يعالج هذا البحث قضية اللفظ والمعنى التي شغلت النقاد والبلاغيين القدامى _ومازالت تشغل المحدثين أيضا_، هي قضية ارتبطت بكثير من العلوم وحقول المعرفة الإنسانية عند العرب.

Summary:

This research deals with the issue of pronunciation and meaning that ran critics and old rhetorics _as well preoccupied the moderns _,it is the cause of much of the associated fields of science and human knowledge among the Arabs.

تمهيد:

لقد تأسس المصطلح النقدي والبلاغي في القديم على أرضية معرفية تشكل البلاغة مدخله ومفتاحه، وترسم بأجهزتها المفاهيمية وخرائطها الدلالية حدود النصوص والمصطلحات وهوياتها، مما جعل المدونة النقدية والبلاغية تزخر بمصطلحات وقضايا أثرت التجربة النقدية العربية.

وقد تشكلت تلك القضايا في ثنائيات ضدية غالبا، مندرجة ضمن تقابلات ومناكفات وتحولات مجتمعية، أفرزت جملة من مؤثثات الدرس النقدي القديم (الطبع والصنعة، الانتحال والأصالة، الفحولة واللين، القديم والجديد، الصدق والكذب، اللفظ والمعنى....)، هاتان الأخيرتان تبلورتا في ظل تجاذبات ومنطلقات كلامية وجدلية وفكرية، ولدت وسطا موتورا عانى من ضبط المفاهيم ورسم التصورات خاصة في حالة الانتقال باللغة من وظيفتها الإبلاغية الاعتيادية إلى وظيفتها البلاغية والجمالية.

قضية اللفظ والمعنى من القضايا الكبرى التي شغلت النقاد والبلاغيين القدامى _ومازال تشغل المحدثين أيضا_ وشكلت مع جملة من المواضيع المفهرسة في النقد العربي القديم مادة دسمة للنقاش الفكري والتحاور اللغوي والتقييم الجمالي حول طبيعة الأعمال الإبداعية والآثار الفنية.

لقد ظهر مصطلح اللفظ والمعنى في أتون الجدل والحجاج والكلام، فتوسعت مباحثه وزادت عنايته وكثرت الآراء حوله، وتنافس العلماء والبلغاء والأدباء في تتبع فضائله ومزاياه وترسيخ معارفه وأفكاره والعلاقة التي تربط الدال بمدلوله.

ألقت قضية اللفظ والمعنى بشحنها البلاغية والفكرية وأجهزتها الكلامية كرة الثلج بين النقاد والبلاغيين بمختلف منتمياتهم وقناعاتهم، فتدحرجت وبدأت تكبر مع الزمن والجدل والحجة والكلام، ليخرج مفهومها متورما يعاني من التأرجح الدلالي والتضبيب التخييلي.

الإشكالية:

فما هو مصطلح اللفظ والمعنى؟ وما العلاقة بينهما؟

وما المشكلات والإشكالات التي أثارها في بلورة المفاهيم وتحديد معالم التصور على مستوى المصطلح البلاغي القديم؟

إنه لا توجد قضية ارتبطت بكثير من العلوم وحقول المعرفة الإنسانية عند العرب أكثر من قضية اللفظ والمعنى، بالنظر إلى تعديتها مجال اللغة إلى مجالات وميادين علمية أخرى.

ولذلك نجد أن قضية اللفظ والمعنى في التراث النقدي واللغوي مسألة أساسية متداخلة في العلوم والحضارة العربية ذات الصلة بالنص واللغة بوصفها " هيمنت على تفكير اللغويين والنحاة وشغلت الفقهاء والمتعلمين واستأثرت باهتمام البلاغيين والمشتغلين بالنقد، نقد الشعر والنثر، دع عنك المفسرين والشراح الذين تشكل العلاقة بين اللفظ والمعنى موضوع اهتمامهم العلني والصريح"[1]

أولا: علاقة اللفظ والمعنى عند الأمم القديمة:

اللغة وعاء الفكر، بل هي كهف الوجود كما يقول هيغل، ولاشك أنها وثيقة الصلة بالمنطق والوجود منذ وجود الإنسان على الأرض، حيث أن تفاعل المفعولات المنطقية يصل إلى نتيجة مركبة هي (الفكر)، ولا يمكن أن يتم هذا في غياب اللغة أو انعدامها، حيث حصول الفكر بغير اللغة التي تحمل المعنى مستحيل، فهي تقوم مقام اللحمة لهذا الترابط من المعقولات المتفاعلة، وهو ما جعل ماكس مولر يقول بأن اللغة والفكر وجهان لعملة واحدة بمعنى أن الفكر يتم باللغة ومعها[2]

إن وظيفة اللغة تكاد تنحصر في الدلالة على معنى أو فكرة تدور في ذهن المتكلم وباله، تنكشف عبر عملية التلفيظ، ثم عملية الملفوظ، ومن خلالها تحدث الوظيفة التواصلية.

[1]- محمد عابد الجابري: اللفظ والمعنى في البيان العربي، مجلة فصول، المجلد السادس، العدد الأول، 1985م، ص21.

[2]- إبراهيم بلقاسم: ثنائية اللفظ والمعنى وأثرهما في توجيه الدلالة، مجلة التراث العربي، العدد 107، ص193.

أ_ عند الإغريق:

يرى أفلاطون وأستاذه سقراط والمدرسة السوفسطائية أن الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها صلة طبيعية ذاتية، بمعنى أنها لير في الذهن مباشرة مدلولاتها المخصصة لها، مع إدراكهم أن الصلة قد تتقطع نتيجة لتقادم العهد أو تطور الأصوات، وإن لم يستطيعوا إثبات هذه الصلة في بعض الألفاظ.

كما يرفض أيضا فكرة أفلاطون، ويرى أن الصلة عرفية اصطلاحية يتواضع الناس عليها في مجتمع ما.

ويرى سقراط أن بعض الألفاظ لها صلة طبيعية بالمعنى وبعضها الآخر ليس لها صلة طبيعية[3].

ب_ عند الهنود:

اهتم الهنود بموضوع العلاقة بين اللفظ والمعنى، قد يكون ذلك قبيل وجوده عند الإغريق، وقد عمد جمهور من فلاسفتهم مناقشة القضية، وتحدثوا عن ثلاثة أقسام مختلفة في جوهرها، وهي ما يسمى بالكلمة والإدراك والمحتوى، واعتبروا أن الكلمة مركبة من وحدات صوتية ضم بعضها إلى بعض، حيث أن الشيء المحسوس (بقرة) ينظر إليه بوصفه نوعا معينا من الحيوانات له أعضاء معينة، أما الإدراك أو التصور فهو الربط بين اللفظ ومدلوله مما يستلزم معرفة سابقة.

لقد اختلفت آراء الهنود في الإجابة على إمكانية أن يحتوي اللفظ على فكرة معينة دون وجود علاقة أساسية، وكانت لهم بعض الإجابات ذات البعد اللاهوتي والفلسفي، ومنها [4]

1- بعضهم رفض فكرة التباين، وأصر على أن كل شيء يتصور مقترنا بالوحدة الكلامية الخاصة به أو الدالة عليه، ولا يمكن فصل أحدها على الآخر.

---

[3]- كاظم عظيمي: العلاقة بين اللفظ والمعنى من السقراط إلى الهرمينويقا، موقع ديوان العرب htt :llwww.diwanalarab.com ، تاريخ الزيارة: 10 ديسمبر 2015 م على الساعة 19:30.

[4]- المرجع السابق.

2- العلاقة بين اللفظ والمعنى لدى بعضهم علاقة قديمة وفطرية أو طبيعية كمحاكاة لأصداء الطبيعة وأصواتها.

3- أما جماعة أخرى من الفلاسفة اللغويين الهنود، فيقولون بوجود العلاقة الضرورية وغير المتنوعة بين اللفظ والمعنى، شبيه بالعلاقة اللزومية بين النار والدخان.

4- الجماعة الرابعة ترى أن الصلة بين اللفظ والمعنى مجرد علاقة حادثة مرتجلة، لكن طبقا لإرادة الآلهة فأدخلوا البعد الميتافيزيقي في تلك العلاقة.

ثانيا: أسباب ظهور قضية اللفظ والمعنى:

إن قضية اللفظ والمعنى ليست من البساطة والتسطيح، نظرا لارتباطها بالظاهرة الفنية المرتكزة على الشكل والمضمون، كما أنها عميقة ومعقدة توحي بوجود أسباب لظهورها وتداولها، ويرجع بعض الدارسين الأسباب الرئيسة إلى حقول معرفية مختلفة، أهمها:[5]

- لقد ظهر مصطلح اللفظ والمعنى حول مسألة بالغة التعقيد والحساسية، حيث برز في عاصفة "خلق القرآن"، وأسئلة المتكلمين التي بلغت بهم لحد طرح السؤال المغلق: هل القرآن معجز بلفظه وحروفه وأصواته أم بمعناه فقط؟، ثم انتقل النقاش من القرآن إلى الشعر[6]، وتجاذب النقاد الآراء حول أفانين القول ومضارب البلاغة، وتساءلوا من أي جهة تأتي البلاغة في الشعر، هل من جهة اللفظ؟ أم من جهة المعنى؟ أم من جهتهما معا؟

- الصراع بين العرب والشعوبيين، فقد اتهمت الشعوبية العرب بوصفهم أهل فصاحة وبلاغة بما هو عكسه، وأنهم أمة بادية ينتصرون للفظ ولا يعرفون المعاني اللطيفة والأفكار الدقيقة، في حين أثبت العرب عمقهم في فنون القول ومحاسنه.

---

[5]- بوعلام بوعامر: في النقد العربي القديم، دار صبحي، غرداية (الجزائر)، ط1، 2014م، ص168-169.

[6]- عمر عروة: دروس في النقد الأدبي القديم أشكاله وصوره ومناهجه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2010م، ص125.

- قضية اللفظ والمعنى لم تكن لتبرز لولا السياق الخارجي وما يحمله من ثقافة وفلسفة وأفكار كرست هذه القضية ثم انتقلت للعرب ضمن الثقافة المرحلة إليهم ترجمة وتواصلا.

ثالثا: اللفظ والمعنى ومشكلة المفاهيم والمصطلحات:

قبل الخوض في دراسة قضية اللفظ والمعنى في المدونة البلاغية ومواقف النقاد منها، نتوقف عند المفاهيم والمصطلحات اللغوية والمعجمية وأثرها في العلاقة بين اللفظ ومعناه:

1- على مستوى اللفظ:

جاء في معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم " اللفظ بالكلام مستعار من لفظ الشيء من الفم، ولفظ الرحى الدقيق، ومنه سمي الديك اللافظة لطرحه بعض ما يلتقطه للدجاج"[7]

وعرفه ابن مالك عند حديثه عن حدود الكلمة بأنها " لفظ مستقل دال بالوضع تحقيقا أو تقديرا...والمراد بالمستقل هنا ما ليس بعض اسم كياء زيد، وتاء مسلمة، ولا بعض فعل كهمزة أعلم، وألف ضارب، فإن كل واحد من هذه المذكورات لفظ دال بالوضع وليس بكلمة لكونه غير مستقل"[8]

وقال أبو البقاء الكفوي معرفا اللفظ :" هو في اللغة مصدر بمعنى الرمي، وهو بمعنى المفعول، فيتناول ما لم يكن صوتا، وما هو حرف واحد وأكثر مهملا أو مستعملا، صادرا من الفم أولا، لكن خص في عرف اللغة بما صدر من الفم من الصوت المعتمد على المخرج حرفا واحدا أو أكثر، مهملا أو مستعملا، فلا يقال لفظ الله، بل يقال كلمة الله وفي اصطلاح النحاة ما من شأنه أن يصدر من الفم من الحرف، واحدا أو أكثر، أو تجري عليه أحكامه كالعطف والإبدال، فيندرج فيه حينئذ كلمات الله، وكذا الضمائر التي يجب استتارها، وهذا المعنى أعم من الأول، وأحسن تعاريفه على ما قبل صوت معتمد على مقطع، حقيقة أو حكما، فالأول كزيد والثاني كالضمير المستتر في (قم) المقدر بأنتَ"[9]

---

[7]- الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: يوسف محمد البقاعي، دار الفكر (بيروت)، ط1، 2006م، ص344.

[8]- ابن مالك: شرح التسهيل، تح: عبد الرحمان محمد بدوي المختون، دار هجر، القاهرة، 1990م، 4/1- 5.

[9]- أبو البقاء الكفوي: الكليات، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993م، ص795.

من خلال التعريفات السابقة نجد أننا أمام مصطلح يتأرجح بين اللغويين والنحويين والفقهاء، وهو ما أعطاه مدونة في القبض على معناه، ونستفيد من التعريفات الثلاثة أن "اللفظ":

أ- مستعار من لفظ الشيء من الفم

ب- لفظ مستقل وآخر غير مستقل

ت- لفظ بمفهوم النحاة وأهل اللغة وأهل الفقه

ولو رجعنا إلى أحد أعمدة النحو لوجدنا سيبويه مثلا يسمى اللفظ العلامة الإعرابية أو الإعراب[10]، لأنه يرى أن الحركات الإعرابية تنتج معنى، وفي ذلك كسر لمعنى اللفظ لغة واصطلاحا، رغم أن جل التعريفات تتوافق أن اللفظ هو المصطلح الذي يعني ما يصدر من الفم من كلام أو أصوات أو حروف، وهو يتقاطع مع مصطلحات أخرى مثل القول والكلام والكلمة والصوت والجملة والكلم.

2- <u>على مستوى المعنى:</u>

ومصطلح المعنى يعد أكثر المصطلحين اضطرابا واختلافا واهتماما من قبل الدارسين في دراساتهم وبحوثهم، وهو عند النحويين فقط متعدد، فأحيانا يقصدون به المعنى الدلالي، وأحيانا أخرى يقصدون به المعنى الصرفي فقط، وفي بعض الأحيان ثالثة يقصدون به المعنى النحوي، حيث أن وظيفة الكلمة في الجملة تتوزع بين الفاعلية والمفعولية والإضافة.

وفي رسم العلاقة بين اللفظ والمعنى يشدد ابن جني أن الألفاظ تخدم المعاني، وأن المخدوم لاشك أشرف من الخادم، ويستدرك على أن العناية " باللفظ عنده لازمة، فبدون الألفاظ لا يمكن إبراز المعنى وتوضيحه، وإصلاح الألفاظ ومراعاتها أمر يحتمه التعبير"[11]

---

[10]- الأعلم الشمنتري: النكت في تفسير كتاب سيبويه، تح: رشيد بلحبيب، وزارة الأوقاف، المغرب، 1999م، 200/1.

[11]- عبد القادر حسين: المختصر في تاريخ البلاغة، دار غريب، القاهرة، ط2001م، ص68.

يسرد ابن فارس في أول مادة (عنى والمعنى)، سواء أكانت واوية أو يائية فثم القصد للشيء بانكماش فيه وحرص عليه والثاني دال على خضوع وذل، والثالث ظهور الشيء وبروزه ومنه عنيان الكتاب وعنوانه وتفسيره، إنه البارز منه إذا ختم[12]

ودائما ما يتحدث النحاة عن المعنى بمفهومه النحوي والإعرابي، ومن هذا قول ابن جني عن الإعراب إنه:" الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم زيد أباه، وشكر سعيدا أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرحا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه "[13]

وعطفا على حديث النحاة أيضا عن المعنى، فإننا نجد تقسيمات للدلالة عند ابن جني كذلك، فعنده أن الدلالات ثلاث: أولها لفظية كدلالة (قام) بلفظه على مصدره، وصناعية كدلالة (قام) أيضا على الزمن الماضي، ومعنوية كدلالة معنى هذا الفعل على ضرورة وجود فاعل له[14].

ومن هنا يتضح أن مصطلح المعنى مختلف في تعريفه، وذلك يرجع إلى اختلاف واهتمام الدارسين له وتعدد ميادين بحوثهم، بالإضافة إلى كثرة المصطلحات المستعملة في هذا المجال والمرتبطة به.

رابعا: إشكالات التصور في معالجة اللفظ والمعنى:

انتقلت فكرة الشكل والمضمون إلى الأدب من الفلسفة حيث أن الشكل هو الصورة والمضمون هو الهيولى، وأما العلاقة بينهما فهي علاقة ارتباط كلي إلى حد التطابق وقد بدأت مستقلة الشكل والمضمون في الشعر وكانت فصلا بين اللفظ والمعنى، وقد رسخه المعتزلة انطلاقا من مشكلة خلق القرآن وقضية المجاز وفي رأيهم أن هناك فرقا بين المدلول والدلالة في القرآن الكريم، فالمدلول عندهم معنى متوفر في النفس الإنسانية، يتقدم المعنى الدلالة بمعنى _ هنا_ الألفاظ التي من خلالها يتضح المعنى.

1- أثر المعتزلة في اللفظ والمعنى:

---

[12]- ابن فارس: الصاحبي، تح: عبد السلام هارون، طبع مصطفى الحلبي، ط1964م، ص .

[13]- ابن جني: الخصائص، 36/1.

[14]- المصدر نفسه، 100/3.

لقد عمل الفكر الاعتزالي على تطور حركة النقد العربي القديم، وشكلت موجتهم أكبر قوة فاعلة إبان القرن الثالث الهجري، فأثر الجاحظ في الأجيال من بعده، وأثرت صحيته بشر بن المعتمر في ابن قتيبة، وكذا أثر الصحيفة الهندية في الحديث حول اللفظ والمعنى " وكذلك فإن إلحاح المتأدبين من المعتزلة على اتخاذ الشعر وعاء للمعرفة كان ذا أثر في توجيه النقد الأدبي، ولكن بطريقة سلبية، إذ صادف ذلك انكسارا في الذوق الأدبي بين الأجيال، وأصبحت الحاجة ماسة إلى نقد يعتمد تبيان الجمال لا المنفعة الثقافية في الشعر"[15]

واستطاع المعتزلة أن يؤثروا في النقد ويسهموا في حركيته بواسطة أمرين[16]:

أولهما: البلاغة بوصفها عنصرا مهما في عملية الإقناع الذي هو غاية الجدل الكلامي، ولأجل ذلك كان بعض علماء المعتزلة معلمي بلاغة، مثلما كان سفسطائيو اليونان.

قال الجاحظ في تمامة بن أشرس المعتزلي:" وما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما قد بلغه وكان لفظه وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك"[17]

ثانيهما: إيمان المعتزلة بالقيمة المعرفية للشعر العربي رغم اطلاعهم على الثقافة الأجنبية وتمكنهم منها.

وبالنظر لطبيعة البحث العقلي المجرد عندهم، فقد أوصلهم إلى تقديم المعنى على اللفظ وفق ثلاثة أسباب هي[18]:

- المعنى أسبق:

---

[15]- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، الأردن، ط1، 2001م، ص57.

[16]- المرجع نفسه، ص55-56.

[17]- المرجع نفسه.

[18]- إبراهيم بلقاسم: ثنائية اللفظ والمعنى وأثرها في توحيد الدلالة، (مرجع سابق)، ص195.

أي إن نظرية الدليل تختصر اللغة والنصوص الشرعية والاجماع وجميع آليات الأدلة، فتؤول بها المعنى عما يتصوره العقل أولا، فاللغة ليست دليل، إنما هي مظهر للدليل فالشيء عندهم يعقل أولا ثم يحدد، ولو عقل أهل اللغة الكسب لوضعوا خاصا به، فلما لم يضعوا دل على أنهم لم يعقلوه.

- المعنى أوسع:

لا شك أن المعاني كثيرة لا متناهية، فيها المادي والمعنوي، والشاهد والغائب، والنظري والتطبيقي، يقول الجاحظ:" ثم اعلم حفظك الله، أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة"[19]

- تسمية الشيء باسم ما يقوم مقامه:

ويصطلح عليه البعض (العجز النوعي)، لأن العقل لا يمكنه الإحاطة بالمدلولات الغيبية إحاطة كلية ودقيقة دقة وافية، فيستعير الإنسان من أسماء عالم الشهادة ما يصح أن يقوم مقامه، ويمثل الجاحظ لذلك بقوله تعالى:" هذا نزلهم يوم الدين" ، والعذاب لا يكون نزلا ولكن لما قام العذاب لهم مقام النعيم سمي باسمه، واستحضر قول الشاعر العربي:

فقلتُ أطعمني عميرُ تمرا فكان تمري كهرة وزبرا

إذ التمر لا يكون كهرة وزبرا، إلا من هذا الباب.

- المعنى أدق:

إن التعبير الأبين للاسم عن مسماه قد لا يبقى أو يدوم إنما يتطور مع الزمن، ويحدث أن تطرح المعاني ألفاظها وأسماءها كما تطرح بعض الحيوانات جلدتها الميتة وتتخلى عنها، وذلك مثل شوال ورمضان فهما كلمتان جاءتا من (شوال سمي بذلك لأن الناقة شالت بذنبها) و (رمضان سمي لوعيهم الربيع فيه) ومع الزمن زال السبب واستمر اللفظ وبقي كالسمة لهما.

[19]- الجاحظ: البيان والتبيين، 56/1.

غير أن المتتبع لموقف الجاحظ من قضية اللفظ والمعنى يلمس رأيه فيه شيء من الغموض، خصوصا تلك العبارة الشهيرة التي حيرت النقاد قديما وحديثا عندما يقول:" المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[20]

والظاهر من كلام الجاحظ انتصاره لقضية اللفظ على المعنى، ويبرز الدكتور إحسان عباس _ رحمه الله_ تصريح الجاحظ بقوله أن له أسبابا كثيرة منها أن الجاحظ لم يتابع أستاذه النظام في قوله بالصدفة تفسيرا للإعجاز، وإنما وجد الإعجاز لا يُفسَر إلا عن طريق النظم، ومن آمن بأن النظم حقيق يرفع البيان إلى مستوى الإعجاز ، لم يعد قادرا على أن يتبين نظرية تقديم المعنى على اللفظ، ومن الأسباب أن عصر الجاحظ شهد تحولات بوادر حملة عنيفة يقوم بها النقاد لتبيان سرقة المعاني بين الشعراء، ويواصل إحسان عباس تبريره لسلوك الجاحظ، بعدم الاستبعاد أن يكون الجاحظ قد حاول الرد على ذلك التيار العنيف مرتين، مرة بألا يشغل نفسه بموضوع السرقات كما فعل معاصروه، ومرة بأن يقرر بأن الأفضلية للشكل لأن المعاني قد تشترك بين الناس جميعا[21].

والحقيقة أن رأي الجاحظ يتضح بعد قراءة كل كتبه، ولا سيما الحيوان والبيان والتبيان ورسائله، حينئذ يتجلى موقف الجاحظ الواضح بأنه يساير النظرة المؤكدة على أفضلية المعنى وضرورة العناية به.

2-أنصار الشكل (اللفظ):

أدت عبارة الجاحظ الشهيرة إلى مزالق النقاد والبلاغيين من بعده، ولعل أول ضحية انزلق في ترداد مقالة الجاحظ وأعادها بشيء من التضمين أبو الهلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين، الذي

[20]- الجاحظ: الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث، بيروت، ط3، 1969م، ص131-132.

[21]- إحسان عباس: (المرجع السابق)، ص 86-87.

يقول:" وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه "[22]

والعسكري لا يمثل شخصه وإنما هو لسان ناطق لتيار نقدي بكامله، يشدد على عدم وجود وحدة بين اللفظ والمعنى، وبعضهم رغم بعض الانحيازات للفظ على حساب المعنى فقد لمح لتلك الرابطة بينهما بقوله:" اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا"[23]

وذلك التصور للعلاقة بين اللفظ والمعنى معروف في المشرق منذ ابن طباطبا العلوي، وأورد العلاقة ذاتها في كتابه عيار الشعر قائلا:" والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه كما قال بعض الحكماء: الكلام جسد وروح فجسده النطق وروحه معناه"[24]، وذلك يجعل العلاقة بين اللفظ والمعنى أوضح عند ابن طباطبا من تلك التقسيمات المنطقية التي وضعها ابن قتيبة حسب الوجود الأربعة التي عدها كقسمة منطقية، ويبدو أن ابن قتيبة جعل للألفاظ دلالات مفردة أو مستقلة، أما المعنى عنده فهو مجرد المحتوى المنطقي للكلام، كما قسم الشعر قسمة حادة صارمة جافة يتضح من خلالها الفصل بين اللفظ ومعناه:" فالشعر عنده أربعة أضرب: ضرب حسن لفظه وجاد معناه، وضرب حسن لفظه وحلا ولا فائدة في معناه، وضرب جاد معناه وقصُرت ألفاظه عنه، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه"[25]

3- نظرية النظم:

من الآراء التي ينبغي الإشادة بها عند التطرق لقضية اللفظ والمعنى هي وجود طائفة من النقاد القدامى، أخذوا كامل وقتهم في معالجة قضية اللفظ والمعنى ولم يبحثوا في المعنى وحده أو اللفظ وحده

---

[22]- أبو الهلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص72.

[23]- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر ونقده، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2001م، 252/1.

[24]- إحسان عباس: (المرجع السابق)، 128.

[25]- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار الآثار، القاهرة، ط1، 2010م، ص65.

بل اهتدوا إلى طريقة بلاغية رائعة، حيث أنهم رأوا ضرورة البحث في العلاقة بين اللفظ والمعنى الحامل له، وقد شكلوا طريقا ثالثا وسطا أعطى لهذا المشكل حلا تاريخيا.

ومن أشهر أعلام هذا الرأي أبو حيان التوحيدي وعبد القاهر الجرجاني، وهو الذي استفاد من مادة الجاحظ وجهوده بعد أن فهمها ودققها وتفطن إلى بعض الغموض فيها، وبعد شيء من التهذيب والتنسيق أخرج نظرية " النظم" في كتابه " دلائل الإعجاز" ، والتي تجعل اللفظ والمعنى يجتمعان في آي القرآن الكريم ليشكلا نظما مدهشا ومعجزا.

إن نظرية النظم بحث حل إشكالية اللفظ والمعنى التي شغلت النقاد والبلاغيين حينا من الدهر، وهي " شهادة إثبات موثقة لعبقرية البحث النقدي والبلاغي عند العرب ونقادنا القدماء، وحجة بالغة على عمقه وأصالته، وقد كانت كفيلة بإنهاء الفصل المفتعل بين اللفظ والمعنى"[26]، كانت لنتائجها انعكاسات علمية تطبيقية تبلورت في أبحاث وأعمال المفسرين البلاغيين من أمثال الزمخشري وغيره.

لقد ظلم النقد العربي القديم من حيث التصور، إذ لم يفهم من مصطلح المعنى سوى الفكرة المجردة، فمعنى الشعر ومعنى النثر هو الغرض أو القصد أو المضمون، ولم يهتم النقد القديم بالصورة الفنية عند اهتمامه بالمعنى، على الرغم من أن " الصورة الفنية طريقة خاصة من طرق التعبير وأوجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تحدث في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير"[27]

ولم تكن الإساءة للمعنى فقط إنما حتى للفظ، فعمل اللفظ كوقع للكلمات عند ابن قتيبة مثلا، ولُحق مع المعنى بتقسيمات منطقية جافة، أما التصوير الفني ونقل المشاعر والأداء الإيقاعي فلم يحظيا بوافر اعتبار في نقدنا القديم.

إن إشكالية التصور الشامل والمتكامل لقضية اللفظ والمعنى هي التي ولدت الفهم الخاطئ للظاهرة، وجعلت كل طرف ينظر إليها من زاوية فلسفية أو كلامية بعيدة عن أسرار اللغة وفقه العربية.

النتائج:

---

[26]- بوعامر بوعلام: في النقد العربي القديم، ص 178.

[27]- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ص314.

1- قضية اللفظ والمعنى عابرة للزمان والمكان وعرفتها أمم قديمة قبل العرب.

2- أفرزت الأوساط الكلامية والأسئلة حول " خلق القرآن" أوليات الحديث عن اللفظ والمعنى ومدى تعلق الإعجاز بأحدهما.

3- أقرت المدرسة العقلية القديمة (المعتزلة) جانب المعنى، وانتصرت له دون الإخلال بخدمة الألفاظ.

4- يسبق الجاحظ البلاغيين العرب في التنظير لنظرية النظم، والعناية بالفكرة والمعنى والنسج والتصوير واللفظ المرونق.

5- مصطلحات اللفظ والمعنى شكلا في مدلولهما نوعا من التفلت الدلالي بسبب تعدد ميادين مستخدميها وموظفيها.

6- نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني وكذا أفكار أبي حيان التوحيدي جمعت بين اللفظ والمعنى في الكلام المعجز.

7- تكرست في المدونة البلاغية آليات البلغاء واللغويين والفقهاء وبسطت سلطتها على حساب الأدباء والمفكرين.

المراجع المعتمدة:

- الأعلم الشمنتري: النكت في تفسير كتاب سيبويه، تح: رشيد بلحبيب، وزارة الأوقاف، المغرب، 1999م، ج1.
- إبراهيم بلقاسم: ثنائية اللفظ والمعنى وأثرهما في توجيه الدلالة، مجلة التراث العربي، العدد 107.
- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، الأردن، ط1، 2001م.
- أبو البقاء الكفوي: الكليات، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993م.
- بوعلام بوعامر: في النقد العربي القديم، دار صبحي، غرداية (الجزائر)، ط1، 2014م.
- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، در التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1983م .
- الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ج1.
- الجاحظ: الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث، بيروت، ط3، 1969م.
- ابن جني: الخصائص، تح: محمد علي النجار، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1999م ،ج 1.
- ابن فارس: الصاحبي، تح: عبد السلام هارون، طبع مصطفى الحلبي، ط1964م.
- عبد القادر حسين: المختصر في تاريخ البلاغة، دار غريب، القاهرة، ط2001م.
- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار الآثار، القاهرة، ط1، 2010م.
- كاظم عظيمي: العلاقة بين اللفظ والمعنى من السقراط إلى الهرمينويقا، موقع ديوان العرب htt :llwww.diwanalarab.com ، تاريخ الزيارة: 10 ديسمبر 2015 م على الساعة 19:30.
- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر ونقده، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2001م، ج1.
- الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: يوسف محمد البقاعي، دار الفكر (بيروت)، ط1، 2006م.
- ابن مالك: شرح التسهيل، تح: عبد الرحمان محمد بدوي المختون، دار هجر، القاهرة، 1990م،ج 1.

- محمد عابد الجابري: اللفظ والمعنى في البيان العربي، مجلة فصول، المجلد السادس، العدد الأول، 1985م.
- عمر عروة: دروس في النقد الأدبي القديم أشكاله وصوره ومناهجه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2010م.
- أبو الهلال العسكري: كتاب الصناعتين،تح :علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، 1419هـ.